طفولة أكلتها النار

مي دحدل

من شباك الصف رأيت الدخان الأسود يتصاعد من أحد البيوت ويملأ سماء القرية، هل هو بيتنا؟ اضطربت، فما أن دق الجرس حتى أسرعت نحو بيتنا حيث سكان القرية تجمعوا بأعداد كبيرة، سيارات الإسعاف والمسعفين يتراكضون، الناس تتهامس، هبت النار في جسمها، الله يسترها، تساءلت عما يتحدثون فتبينت الحقيقة، أمي قد هبت النيران في جسدها واحترق 90% منه، ولا أحد يعلم إن كانت ستعيش أم لا.

بدأت مرحلة جديدة من عمري كانت أصعب مما يمكنني تحمله؛ أمي في المستشفى، وكل يوم يسوء حالها أكثر، أبي ينتظر بفارغ الصبر فرج الله وشفاءه لها، أنا ابنة السنوات الست أبحث عن حضن أمي، أصحو كل ليلة أصرخ باكية باحثة عنها، أحاديث كثيرة تدور حولي، لن تعيش، لا يوجد أمل في أن تشفى، يجب أن نفتش على زوجة أخرى لابننا تقوم بتربية الأطفال ... .

أمي كانت تلك المرأة الطيبة والحنونة التي يحلف سكان القرية دوماً باسمها، عاشت حياتها بكل عذابات الأرض، لم تتذمر يوماً، وكذلك أبي فقد كان رجلاً رائعاً، حمل معها معاناتها وشاركها أصغر التفاصيل من لحظة عودتها إلى البيت بعد مرور 6 شهور قضتها في العلاج في المستشفى حتى اليوم.

الخوف من النار صار الكابوس الذي أبعد أمي عني، ولم يسعفها في أن تحتضنني كما كانت تفعل دوماً، كبرت قبل أواني، فصارت مسؤوليتي الاعتناء بأمي وأبي وإخوتي.

أصبح ملجأي الوحيد هو المدرسة، حيث حاولت المربيات تعويضي عن الحنان الذي فقدته، والاهتمام الذي تحوّل عني بفعل حادثة أمي، فصرت محط اهتمامهن، فصرت أتلقى الكثير من الهدايا منهن، يزرنني كثيراً في البيت، ويهتممن في دروسي، قدمن لي كل الدعم النفسي والمعنوي الذي بحثت عنه، فأحببتهن كثيراً، وتعلقت بهن، فصرت ألجأ إليهن كلما احتجت شيئاً، حتى بت أشعر أن المعلمات هن ملائكة الله على الأرض، فأحببت حينها مهنة التعليم، وقررت أن أصبح معلمة مثلهن.

تزوجت بعدما أنهيت الصف التوجيهي، وأنجبت طفلي الأول، فاعتنيت به كثيراً وكنت معلمته الأولى، حتى تميز بمعرفته وعلمه الذي اكتسبه مني عن باقي أطفال القرية من عمره، ومن هم أكبر منه أيضاً، وكأنني كنت أريد إثبات أن التعليم هوايتي.

جاءتني في أحد الأيام إحدى صديقاتي لتعرض عليّ أن أكون بديلة لمعلمة قد أنجبت، وافقت دون تردد، ولاقيت التشجيع من زوجي الذي لم يكن يوماً من مناصري عمل

المرأة خارج البيت، مرت فترة العمل بسرعة كبيرة، ولم تشبع شغفي للمهنة.

بعدها صرت أبحث عن دورات تساعدني في اكتساب المزيد حول تعليم الأطفال حتى سمعت عن دورة لرياض الأطفال عن طريق جمعية السيدات في بلدتي، وكانت مجانية، لمعلمتين واحدة معلمة الجمعية، والثانية أنا، على أساس أن أعمل مساعدة لمعلمة الجمعية مجاناً. فالتحقت بالدورة التي كانت في القدس لمدة سنة، وأخذت الشهادة.

جاءتني في أحد الأيام صديقة لي من رام الله وسألتني: بتحبي تشتغلي في رام الله؟ مطلوب معلمة في مدرسة راهبات مار يوسف، قلت طبعاً أحب ذلك، فذهبت إلى المقابلة وأخيراً أصبحت (مس) وتحقق حلمي.

كانت البداية مع عمر ثلاث سنوات، وبعد سنتين أصبحت مع أربع سنوات، وبقيت ست عشرة سنة، ولا أخفي عليكم بأنني تعبت نفسياً من كثرة حواجز الاحتلال، والطرق الصعبة، والروتين في المنهاج. في هذه الفترة، عرض علي صف تمهيدي، وبدون تردد قلت نعم، وهنا بدأت من الصفر، وكنت في غاية الاستمتاع، ووجدت نفسي في هذا الصف أكثر من السابق. وبعد فترة وجيزة، جاء عرض من مؤسسة «القطان» لمدرستي، وطُلب مني الالتحاق بها، وأنا اليوم معهم محاولة الاستفادة منهم قدر المستطاع، لما لديهم من الخبرة، لأن من يسير معهم وعلى خطاهم فعلاً يتوصل إلى جيل مبدع وواعٍ ومدرك ماذا يريد، وماذا يفعل.

في العام 1993، التحقت بدورة مصادر الطفولة المبكرة التي كانت الأساس في تحقيق حلمي لأصبح معلمة، وحتى الآن لا أنسى المعلمة هالة اليمني التي كانت في غاية الروعة في التعليم، من حيث التشويق، والرغبة في الاستفادة الحقيقية. علمتنا على الثبات والصدق والوفاء بالوعود، والالتزام والصبر أمام الأطفال الأذكياء الذين لا ينسون شيئاً، وينتبهون لكل شيء، والنزول إلى مستوى الأطفال عندما نتحدث معهم، ونريد التقرب إليهم.

علمتنا صنع ألعاب وأدوات عديدة من أشياء بسيطة لتطبيق مفهوم الحواس، ألعاب ذاكرة بصرية/سمعية، وعن طريق اللعب يتعلم الأطفال وكذلك بطاقات لتمكين الأطفال من تمييز الكلمات من خلال الصور.

ولا أنسى المعلمة مهى قطان التي كانت متميزة بتعليم الأطفال عن طريق الحركة، وصنع أدوات وألعاب من الخردة، يلعب بها الأطفال.

وجرت هذه الدورة العام 1993 وكانت من أهم الدورات. وكان الدخول والخروج إلى القدس سهلاً ودون عناء، وهذه الدورة وضعتني على الدرجة الأولى من سلم التعليم.

كل بداية صعبة، لكن السؤال، والاستفسار، والمراقبة، والرغبة، والمتعة في العمل، جعلتني أثبت وجودي مع عمر السنوات الثلاث، حيث إنهم بحاجة إلى الرعاية والعناية والحب والعطف؛ ذلك أنهم يتركون بيتهم للمرة الأولى، ويبتعدون عن أمهم. لكنني نجحت معهم، واستمتعت بالعمل خلال السنة التي قضيتها معهم، ومن ثم أصبحت مع عمر أربع سنوات، الذين كانوا أسهل لي كمعلمة، كونهم تأقلموا في المدرسة، فهذا العمر يأتي إلى المدرسة لا يبكي، ولا يتعلق بأمه مثل السنة الأولى.

كانت مخاوفي في هذه المرحلة من الأطفال أنفسهم؛ كوني المعلمة نفسها التي علمتهم في سن الثالثة، ما يتطلب جهداً كبيراً وتجديداً مستمراً لكي لا يملوا، لأننا في سن الثالثة نعلم ما نعلمه في سن الرابعة، لكن بشكل أبسط، وأود أن اشكر الراهبة سير مريم التي كانت الداعم الأكبر في نجاحي، حيث كانت توجه لي النصائح وأنا أتقبلها بكل صدر رحب، ومن أهمها التحدث دائماً مع الأطفال بصوت منخفض وهادئ، وزادت ثقتي بنفسي عندما أوشكت السنة على الانتهاء، حيث جاء بعض من الأهالي يطلبون مني أن أبقى مع أطفالهم لصف تمهيدي، وكان هذا، طبعاً، مستحيلاً في وقتها.

بعد ذلك، استجاب الله لرغبتي؛ وهي أن أعلم الصف التمهيدي، وعندما سئلت لم أتردد ووافقت في الحال، على الرغم من أن العمل كان لسنة واحدة فقط، لأن المعلمة التي سوف أعمل مكانها مجازة لسنة واحدة. وهنا أخذت أصلي بأن تتوفق المعلمة المجازة في عملها الجديد لكي أبقى مكانها، لأنني استمتعت بهذا الصف وكأنني من هنا بدأت، وعدت إلى الماضي وأحضرت كل الأوراق التي تعلمتها في الدورة، وأصبحت أدرسها من

جديد لأنشط ذاكرتي، لان الدورة كانت لهذا العمر (صف تمهيدي).

وحتى أثبت نفسي، ولا أخيب ظن إدارتي التي اختارتني كي أعلم هذا الصف، رغم معارضة بعض المعلمات بسب بوجود معلمات لديهن شهادة بكالوريوس وهن أحق مني لأنني لا أملك سوى شهادة من دورة تدريبية، بدأت بالعمل وكنت أسأل واستفسر عن أشياء كنت أجهلها، والحمد لله توفقت. ولا أخفي عليكم أن هذا الجيل بحاجة إلى معلمة تصغي إلى الأطفال، وتتجاوب مع طلباتهم، لأنهم موجودون في مجتمع يعمل فيه كل من الأم والأب، ويقضون معظم أوقاتهم في المدرسة والحضانة، ويفتقدون إلى الكثير من الحنان والاهتمام، وهذا أجده من تقرّب البنات لي. وهنا أتوجه بالشكر إلى فيفيان طنوس الباحثة في مؤسسة عبد المحسن القطان، حيث إن المعلمة التي كنت مكانها استلمت وظيفة ممتازة، وأنا بقيت مكانها في صف التمهيدي، إنه السر الذي يجعل النجاح للجميع.

من هنا، التحقت بدورة «القطان» التي غيرت الكثير من أسلوبي في التعليم والتعامل مع الأطفال، حيث أصبحت أنا والأطفال في مشروع عمل مستمر، والأطفال هم العنصر الحاسم في المشروع، حيث هم فريق مسؤول يعملون بتوجيه معلمتهم، ويبنون قصصهم ورسوماتهم بأيديهم، ويتخيلون مستقبلهم عبر الانخراط في العالم؛ انخراط متخيل يمهد الطريق للانخراط الحقيقي.

ما زلت معلمة، وما زلت مستمرة في المشاركة في برنامج «القطان»، وما زلت أصارع أشباح الماضي كي أستعيد ما أكلته ألسنة النار.

روضة راهبات مار يوسف- رام الله

جانب من تطبيقات المربية مي دحدل مع أطفال روضة راهبات مار يوسف.